بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة: 06/01/2012م الشيخ الطبيب محمد خير الشَّعَّال

سلسلة قرأت في كتاب

(العزة)

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله ربنا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى وأحثكم وإياي على طاعة الله، فنحن اليوم في دار ابتلاء فالسعيد من وعظ بغيره، والسعيد من ملأ حياته طاعة، وغير السعيد من ذهب اتجاه المعصية، أو انشغل عن الطاعات بالأهواء والملذات، إنه من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره

ثم أستفتح بالذي هو خير: **قال الله تعالى**: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:10].

وقال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر:2]

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: 39-40]

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: **((يَا غُلَامُ: إِنِّيْ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))** [رواه الترمذي].

هذه هي الخطبة التاسعة عشرة في سلسلة: **(قرأت في كتاب)**، أختار لكم فيها فوائد منثورة، في كتب قرأتها أو بعضها؛ ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

(العِزَّة)

قرأت في كتاب نافع طبَعَتْ دار القلم بدمشق طبعتَه الخامسة عشرة سنة 2000م للشيخ الأديب الداعية محمد الغزالي، عنوانه: **(خُلُق المسلم)**، تحدّث فيه عن مقدّمات أهمية الأخلاق في الدين والحياة، ثم راح يتكلّم عن عدد من أخلاق المسلم؛ كسلامة الصدر من الأحقاد، والقوة، والصبر، والقصد، والعفاف، والنظافة، والتجمُّل، والعلم، والانتفاع بالوقت، والاتحاد، واختيار الأصدقاء، والحياء.

وكان أن تكلَّم عن العزة خُلُق من أخلاق المسلم، وها أنا أعرض عليكم شيئاً مما جاء في الكتاب.

يقول المؤلف: (الكبرياء على العباد صفة رب العباد الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى، والذي إذا ظهر قهر، وإذا تجلى طاشت لأنوار جلاله ألباب البشر، ﴿فَلِلَّهِ

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: 36-37]

وذِلّة العباد لربهم ذِلّة بالحق لا بالباطل، فإن الحق والأمر والغنى والملك له وحده ومصاير العباد رهن مشيئته وطوع إرادته، أما ذِلة العبد لعبدٍ مثلِه فباطل لا ريب، والمتكبر هنا متطاول مبطِل، يزعم لنفسه ما ليس لها، والوضيع المستعبَد جاهل بقدْرِه، تحمّل من الأوزار ما لا يطيق، وقد حرّم الإسلام الكبر وحرّم الذل وأوجب العزة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ ، أَكَبَّهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ)) [أحمد].

وهذا تحريم الكبر ومفهومه وجوب التواضع.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من تضعضع لغنيٍّ لينال مما في يديه أسخط الله)) [الطبراني].

وفي رواية: ((مَن جَلَس إلى غنيٍّ فتضعضع له لدنيا تصيبه ذهب ثلثا دينه ودخل النار)). تضعضع: يعني خضع وذلّ. وهنا تحريم للتذلّل للبشر، ومفهومه العزة.

فقد حرم الإسلام على المسلم أن يتكبّر أو يَبطر الحق ويزدري الناس، وحرّم عليه بالمقابل أن يَهون أو يستذلّ أو يستضعف، ورمى في قلبه القلق والتبرم بكل وضع يخدش كرامته ويجرح مكانته).

لقي الإمام الثوري السيدة رابعة العدوية وكانت خشنة الثوب، قليلة ذات اليد، فقال لها: يا أم عمرو، أرى حالاً رَثّة، فلو أتيتِ جارك فلاناً لغيّر بعض ما أرى؟ فقالت له: يا سفيان، وما ترى من سوء حالي؟! ألستُ على الإسلام؟ فهو العزُّ الذي لا ذُلَّ معه، والغنى الذي لا فقر معه، والأُنس الذي لا وحشة معه، والله إني لأستحيي أن أطلب الدنيا مَن يملكها، فكيف أسألها مَن لا يملكها؟! فقام سفيان معتذراً.

(العزة والإباء والكرامة من أبرز الخلال التي نادى بها الإسلام، وغرسها في أنحاء المجتمع وتعهد نمائها بما شرع من عقائد وسنَّ من تعاليم، وإليها يشير عمر –رضي الله عنه– بقوله: (**أُحِبُّ من الرجل إذا سيم خطة خَسْف أن يقول بملء فيه: "لا"**).

أي: إذا أُلزِم أن يذل أو يهون أن يقول: لا.

علامَ يصيح المؤذن خمس مرات كل يوم منادياً بتكبير الله وحده في بداية الأذان ونهايته؟ ولماذا يتكرر هذا التكبير فيكتنف حركات الصلاة كلّها من قيام وقعود؟

وذلك لكيما يدقّق المسلم يقيناً لا يهتز ولا يزيغ أن كلّ متكبّر بعد الله فهو صغير، وأن كل متعاظم بعد الله فهو حقير، فكأنما وكّل إلى هذا النداء أن يردّ الناس إلى الصواب كلّما أطاشتهم الدنيا وضلّلتهم متاهاتها الطامسة.

يقول المؤلّف مبيناً أسباب الناس في إذلال أنفسهم:

(إن الناس يُذِلّون أنفسهم ويَقبلون الدَّنيَّة في دينهم ودنياهم لواحد من أمرين: إما أن يُصابوا في أرزاقهم، أو في آجالهم.

والغريب أن الله قطع سلطان البشر على الأمرين جميعاً -الآجال والأرزاق-، فليس لأحد إليهما من سبيل.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**إن الرزق ليَطلُب العبد كما يَطلُبُه أجلُه**)) [الطبراني].

وقال في شأن الأجَل والرّزق: ((**إن روح القدس نفَثَ في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلَها وتستوعب رِزقها**)) [أبو نعيم]

وقال الله تعالى في شأن الرزق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات:22-23]

وقال في شأن الآجال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34]

من هنا يظهر أن الناس في الحقيقة يستذلّهم وهمٌ نشأ في أنفس مريضة بالحرص على الحياة والخوف على القوت؟

وبذل ماء الوجه طلباً للمال شَينٌ، وتهيّب الموت وتحمّل العار طلباً للبقاء في الدنيا على أيّة صورة حُمقٌ، والناس من خوف الذُّل في ذُل، ومن خوف الفقر في فقر.

ويَذكر الشيخ الغزالي أن العزة حقٌّ يقابله واجب، **فيقول**: (والعزَّة حق يقابله واجب، وليس يسوغ لامرئ أن يطالب بما لَه مِن حقٍّ حتى يؤدي ما عليه من واجب، فإذا كُلّفت بعمل فأديتَه على أصح وجوهه فلا سبيل لأحد عليك: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة:91]، لكن ارتكاب الآثام سبيل السقوط والإهانة، ومَزلَقة إلى خزي الفرد والجماعة.

فالإسلام أوصى المسلم بالعزة وهداه إلى أسبابها، ويسَّر له وسائلها، وأفهمَه أن الكرامة في التقوى، وأن السمو في عبادة الله وأن العزة في طاعته، والمؤمن الذي يعلم ذلك ويعمل به يجب أن يأخذ نصيبه كاملاً غير منقوص في الحياة الرفيعة المجيدة، فإذا اعتدى عليه أحد أو طمع فيه باغٍ كان انتصابه للدفاع عن نفسه جهاداً في سبيل الله، وليس ذياداً عن الحق الشخصي فقط؛ بل إقراراً للحقوق العامة والمثُل العليا.

ومن ثم فإن موت المسلم دون حقه شهادة.

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: ((لا تُعطِه مالك)). قال: **أرأيت إن قاتلني؟ قال:** ((قاتِله))، **قال أرأيت إن قتلني؟ قال:** ((فأنت شهيد))، **قال: أرأيت إن قتلتُه؟ قال:** ((هو في النار)) [مسلم].

فمن عِزة المسلم ألا يكون مستباحاً لكل طامع أو غرضاً لكل هاجم، بل عليه أن يدفع عن نفسه وعرضه وماله وأهله.

وإنما شَرَع الله العقوبة للظالم إعزازاً لجانب المهضوم، وإيهاناً لجانب العادي، فعلّق المسلم بحقوقه وملأ بها يديه، وأغراه أن يتشبّث بها فلا يَنزل عنها إلا عفواً كريماً، أو سماحة تزيده عزاً على عز).

ختم الشيخ الغزالي حديثه عن العزة بقوله: (إن القضاء يصيب العزيز والذليل، يصيب العزيز وله أجرُه، ويصيب الذليل وعليه وزرُه، فكُن عزيزاً ما دام لن يَلتَفِت من محتوم القضاء إنسان).

أيها الإخوة:

هذا شيء مما قرأت عن العزة في كتاب (**خُلق المسلم**)

أخرج ابن مردويه عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يقول الله عزَّ وجلَّ: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.

وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثمَّ تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)).

والحمد لله رب العالمين